JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد التاسع
٢٠٢٢م /١٤٤٤هـ
العدد التاسع
(٥٩)- (٧٢)

التشكيل البصري في قصص العصر العباسي , كليلة ودمنة أنموذجًا

م.د. منى عيسى هاشم
جامعة واسط / كلية التربية الأساسية
munaeesa@uowasit.edu.iq

ملخص

يمنح التشكيل البصري النص رؤية مزدوجة على مستويي (البصر, البصيرة) لذا آثرنا أن نلج عالم (كليلة ودمنة) المؤطر بإطار قصصي خيالي يثير الفكر والوجدان لدى المتلقي, لنتمثل ملامح شخوصها الحيوانية بكل ما فيها من خلق وتصوير وتشخيص, ومن ثم تحديد الملامح البصرية التي أسهمت في بناء النص القصصي من خلال رصد تشكيلات الصور البصرية في القصص التي وقفنا عليها, لأن واقع العمل الفني عملية تشكيلية تهدف إلى خلق الأشكال بما فيها من أبعاد ورؤى ينسجها خيال المؤلف .

الكلمات المفتاحية : التشكيل البصري – القصص– كليلة ودمنة

Visualization in the Abbasid Fiction: Kalila and Demna as an Example

Muna Issa Hashem
Wasit University / College of Basic Education
munaeesa@uowasit.edu.iq

Abstract

The adoption of visualization in a literary text creates a double vision in both vision and insight. This paper, therefore, embarks on this theme in the Kalila and Demna tales, which are Abbasid-era fictional animal-inspired reader-moving stories. This is achieved by reflecting all animal characteristics featured in formation, personification, and visualization. To do so, this paper unfolds the elements that contributed to the construction of these tales by spotting visualization in the stories under study. It is well-known that the state of literary imagery is established to create visual forms along with the author's intentions, figures, and devices.

Keywords: Visualization; Fiction; Abbasid literature; Kalila & Demna

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد التاسع
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

المقدمة :

الحمد لله الذي يعطي فيجزل, والحمد لله الذي يتلطف ويرأف, الحمد لله حمدا يليق بجلال وجهه, والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد ...

لقد وظف ابن المقفع (ت ١٤٢هـ) أفكاره السياسية والاجتماعية والأخلاقية في كتاب (كليلة ودِمنة) بأسلوب جديد لم تألفه العرب, لأنه أطر الأفكار بإطار قصصي خيالي على الرغم من أن الكتاب مترجم بيد أنه أضفى عليه من خياله كثيرا من الصور التي تشغل الفكر وتثير الوجدان, ففي الكتاب حوار لطيف يدور على ألسنة الحيوانات ليستميل قلوب الهازلين من الشباب وليؤنس قلوب الملوك ويوقف الفلاسفة على أفكاره وآرائه ،فكانت حكايات الكتاب تحمل طابعا خلقيا تعليميا في قالب أدبي خاص بها ، لجأ فيها إلى توظيف مجموعة من الأمثال لعرض ما لديه من أفكار ولإقناع المتلقي بتقنيات توظيفه للمثل كونه عنصرا من عناصر التواصل الناجحة .

ولعلّ الكتاب يعرض بتفصيل كبير واجبات الراعي تجاه رعيته، وواجبات الرعية، والالتزام بالصدق في التعامل مع الآخرين والبعد عن الكذب والرياء، وإحكام العقل والفكر، وطلب المشورة .

والبحث وهو يجول في هذا العالم, سيقف على أسباب ظهور القَصص في العصر العباسي ومراحل تطورها, ثم التعريف بالكتاب الذي نحن بصدد الوقوف عليه, وتعريف مصطلح (التشكيل البصري) من بعد ذلك سنقوم بتحليل ودراسة بعض القصص التي تتبعنا فيها التشكيل البصري الذي ساعد على استكشاف الشخوص بأبعادها المادية والمعنوية .

توطئة:

بدأ عصر التدوين الحقيقي في حياة العرب مع نزول القرآن الكريم, وقد شكّل ذلك محورا مركزيا دارت حوله معالم الحضارة العربية الإسلامية, ولكن مع تطور الدولة الاسلامية واتساع رقعتها وحاجتها إلى تصريف شؤونها, أصبح التدوين ضرورة ملحة ولاسيما بعد إنشاء الدواوين, وظلت الرواية على الرغم من ذلك المصدر الرئيس للكتب؛ وذلك للحفاظ على الهوية العربية لاسيما بعد اختلاط الأمم والشعوب وتعقد الحياة الحضرية, فبات علماء الأدب واللغة يجمعون كنوز اللغة والأدب من البوادي، فجمعوا نوادر الأعراب وطرائفهم؛ وذلك لما توافرت عليه من أسباب الفصاحة والجزالة والقوة، وأوقفوا الاستشهاد عند (ابن هرمة ت ١٧٦هـ) .

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد التاسع
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

ولا نبعد إن قلنا أن انتشار ظاهرة السمر في المجالس والمساجد وقصور الخلفاء في العصر العباسي, يعد عاملا مهما من عوامل استمرار الثقافة الشفوية, إذ كانت مصدرا مهما للأخبار والنوادر والقصص في هذا العصر, فشهدت مجالس الرشيد أسمارًا كثيرة شكلت مادة خصبة للفن القصصي, إذ بلغت في عصر المؤرخ (حمزة الأصفهاني ت٣٥٠هـ) ما يقرب من سبعين كتابا واشتهر الأصمعي بأنه (بلبل المجالس) إذ كان يحفظ كثيرا من الأحاديث والأخبار والطرائف ومثله ابو عبيدة وابن الكلبي والكسائي والفرّاء وابن الإعرابي وابن سلّام الجُمَّحي .

وانبرى هؤلاء الرواة إلى تدوين مروياتهم, فتجمعت مادة قصصية ضخمة على أيدي النساخ في الدواوين والمجالس **(ينظر: الصفدي, ٢٠١١م: ٥٥)**.

لقد صاغ العلماء المادة القصصية بأسلوبهم مع المحافظة على نكهتها الشفوية التي يضمنها السند, وكان إلى جانب ذلك قصص شفوي خالص ظل متداولا على أفواه القصاص في العصر العباسي الأول, كان نتاج الحياة الجديدة المتحضرة, ظاهرةُ المتعة وتزجية الوقت وباطنه مثلٌ وعبرة وفائدة, ويمكننا القول أن القص في هذه المرحلة ارتبط بالمقام الأول بالقصص الديني فكان قصصا وعظيا, أو استمد موضوعه من واقع الحياة فضلا عن طرائف ونوادر العشاق والبخلاء و المكدين وسيّر الفرسان وغيرها .

لقد صاحب تطور العصر العباسي وانفتاحه على ثقافات الأمم الأخرى ترجمة أهم الكتب لاسيما بعد تأسيس (دار الحكمة) فكان لها أبعد الأثر في نشر الثقافة والعلم , فنشطت حركة الترجمة في زمن الرشيد حتى شملت مختلف العلوم والفنون, فنقلوا عن الفارسية كتاب (هزار أفسانة) ومعناها ألف أسطورة وهو أصل من أصول (ألف ليلة وليلة) وترجموا (الإلياذة) ملحمة هوميروس الإغريقي و(الشاهنامة) ملحمة الفرس, كما ترجموا عن اليونانية كتاب (طيماوس) لأفلاطون وكتاب (سر الأسرار) لأرسطو وهو مزيج من قصص وغيرها **(ينظر: ضيف, د.ت : ١٠٩)** .

ومن هنا لا يمكن إغفال جهد (ابن المقفع) في الترجمة عن الفارسية , فقد ترجم عددا من الكتب الفلسفية والقصصية والتاريخية منها كتاب (التاج) في سيرة انو شروان , وكتاب (خداي نامة) في السيّر وكتاب (مزدك) والكتاب الأهم كتاب (كليلة ودمنة)؛ إذ نجح ـ ولأول مرة ـ في الارتقاء بفن القصة على لسان الحيوان من الشفوية إلى الأدب الكتابي, معتمدا فيه شكلا جديدا من القصص قائما على الرمز وتعدد الدلالات .

فالكتاب ينطوي على حكمة في ثوب خرافة, تُمثل فيها الطيور والحيوانات مختلف الأهواء والنزعات البشرية,التي تتمثل في الأخيار والأشرار والمسيئين والمحسنين هو حياة ممثلة مصورة بطريقة خرافية

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد التاسع
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

تخضع لشرع الطبيعة المستقيم, وحكم العقل الذي يميز بين الخير والشر, وبين صرامة القضاء المسيطر على كل موجود.**(ينظر:الفاخوري, د.ت:٥٣٦)**.

مفهوم التشكيل البصري في اللغة والاصطلاح :

يعد التشكيل البصري تجليا لسحر الترابط بين الأدب والفنون التشكيلية إذا ما وُظف بطريقة ناجحة, إذا حسبنا أن كل نص عبارة عن متن فيه ركنان : الأول سردي ركيزته اللغة، والثاني بصري سواء أكان صورا ثابتة أم متحركة, أو كان شكلا أم تركيبا, وهذا تطور بمرور الزمن في أشكال بنائه .

فالصلة إذن قائمة بين الفنون والآداب منذ القدم، لأنهما يرتبطان بقيم جمالية وأدبية في آن واحد، وإذا ما تتبعنا كلمة (تشكيل) في معاجم اللغة وجدنا أنها تشتق من جذر الكلمة (شَكَلَ), و" الشكل بالفتح : الشبه والمثل والجمع أشكال وشكول, وشكل الشيء, صورته المحسوسة والمتوهمة , وتشكلَّ الشيء : تصورَّ , وشكلّهُ : صورّهُ ... ، وشكلت المرأة شعرها : ضفرت خصلتين من مقدم رأسها عن يمين وعن شمال ثم شدّت به سائر ذوائبها ... ، وتشكلَّ العنب : أينع, وشكلَ الكتاب يشكله شكلا : أعجمه أي نقطته" **(ابن منظور,٢٠٠٥": مادة شَكّل)**

والشكل أيضا : المثل والشكل : هيئة حاصلة للجسم بسبب إحاطة حد واحد بالمقدار كما في المضلعات من مربع ومسدس وشكل الشيء: تصور,وشكله تشكيلا: صورّه, **(ينظر:الزبيدي,٥: ٧٨١)** والشكلُ (هو الذي يُشبه الشيء في أكثر صفاته , حتى يُشكلَ الفرقُ بينهما ويجوز أن يقال: إن اشتقاقه من الشكل, وهو الشِمال, واحد الشمائل ...فمعنى قولك : شاكل الشيءُ الشيءَ أنه أشبهه في شمائله, ثم سمي المُشاكل شكلا , كما يسمى الشيء بالمصدر ولهذا لا يستعمل الشكل إلا في الصُوَر) **(العسكري , ١٩٩٧م: ١٥٤)**

ونلحظ ـ هنا ـ أن التعريف اللغوي للكلمة يشير إلى تكوين الشيء ليأخذ صورة معينة .

أما اصطلاحا فهو "كل ما يمنحه النص للرؤية سواء أكانت الرؤية على مستوى البصر/العين المجردة أم على مستوى البصيرة/عين الخيال" **(الصفراني,٢٠٠٨: ١٨)** ويتحدد الممنوح للبصر من حيز (التشكيل) المنبثق عن الجدل بين الشفهي والمكتوب في كل المحاولات الكتابية الرامية إلى تجسيد سمات الأداء الشفهي المصاحبة للإلقاء في النص المكتوب بحيث تصبح هذه العلامات عناصر تكوينية في النص وليست تجميلية , والتشكيل بهذا المفهوم يخرج عن تسلطية الأشكال المسبقة والقوالب الجامدة ,**(ينظر:المصدر نفسه:١٨)** وتتجلى براعة الأديب في إدارة التجربة الفنية بدقة ووضع نتاج عملياتها وممارساتها موضع التنفيذ الفني والجمالي ليخرج العمل إلى حيز الوجود.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد التاسع
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

(وعلى وفق هذه الرؤية فإن التشكيل الأدبي هو نموذج من نماذج أصناف أخرى في الحياة والطبيعة والأشياء , إذ كل ما ينتظم في سياق إعادة تنظيم الأشياء على وفق ممارسة تشكيلية توجد منذ فترة طويلة بوصفها اتجاها يتعلق بإخراج الجانب الصوري بآلياته الفنية والجمالية كي تستعيد الممارسة التشكيلية طاقتها الحسية البنائية في واجهات الحياة الحضارية) **(عبيد,٢٠١١م:١٢)**.

إذا فالتشكيل على هذا الأساس هو (مجموعة العلاقات والمجموعات التركيبية التي تحمل معانٍ مختلفة تثير انفعالات مختلفة سرورا وحزنا خوفا وخشية أو اطمئنانا, وتتشكل تشكلا فنيا وجماليا مدهشا وساحرا داخل طريقة خاصة ومختلفة ومغايرة ومبتكرة في التعبير... تثير الرضا والقبول الراقي في مجتمع القراءة وأساليب التلقي النصّي) **(المصدر نفسه:١٣)** ومن هنا كان التلقي مختلفا ,فما يحصل هو اشتراك البصر مع السمع مع العقل في الفهم المتكامل للنص الأدبي ,ويمكن القول بأن التشكيل البصري ينقسم قسمين هما : الشكل أي هيئة الشيء وصورته والبصر: الرؤية, فهو مزيج من الحقيقة والخيال يختلط فيه الواقع بالخيال والمرئي باللامرئي,**(ينظر:يمينة والشايب,٢٠٢٢م:٥٠١)** لأن الخيال ممتد في الحكايات يستعين بالجزئيات التي نبصرها ليكون صورة لا واقع لها غرضها نقل المعنى إلى القارئ أو المتلقي لفك شفرات النص الأدبي.

إن التشكيل البصري يساير واقع الحياة المعاصرة التي تُعنى بالمدركات الحسية وتحيل إلى أهمية المبصرات في إنتاج دلالة النص **(ينظر: الصفراني: ١٨)**، ويمثل التشكيل الثقافة الراهنة بوصفها ثقافة صورية وسمعية تُحيل إلى الوعي بأهمية الفضاء البصري في العمل الإبداعي بوصفه تشكيلا، فيعمد الكاتب إلى استعمال تقنيات خاصة بالتشكيل البصري يسعى إلى توظيفها بشكل ينسجم مع تجربته التي يريد نقلها إلى المتلقي، مما يضمن تعدد الدلالات وفهم جمالية النص الأدبي، وهو ما لم يتوافر عليه النص القديم، فهذا التقنيات وليدة الثقافة المعاصرة ولاسيما بعد اختراع الأدوات الكتابية ومنها أدوات التنقيط أو ما يعرف بعلامات الترقيم , والتشكيل هنا لا يطابق مفهوم الكتابة لأنه يتضمن ما يفيض عن عملية تحويل المنطوق إلى مكتوب , ومن هنا يكتسب التشكيل أحقية وصفه بالبصري ,إذ أنه لا يتحقق ولا يُدرك إلا من خلال حاسة البصر التي تأخذ هنا بعدا فلسفيا ينتمي إلى حقل الثقافة البصرية , التي تهدف من خلال التشكيل البصري إلى تجسيد الإدراك الحسي للعالم لا إلى خلق التصورات عنه , وذلك من خلال دعوة المتلقي إلى التبصر في المعطى البصري للنص في غياب أي محفزات لتصور غير بصري , تعتمد ثقافة البصر لا السمع لتنتج ثقافة نقدية متحررة من سلطة التقليد .**(ينظر: المصدر نفسه:٢٤)**

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد التاسع
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

ويختلف التشكيل عن الشكل, فالشكل إطار جامد يمارس قمعا وتسلطا على المضمون ولا بدَّ للمضمون أن يتشكل ليتخلص من سلطة الأشكال والقوالب الجامدة, والشكل سابق على النص مفروض عليه **(ينظر:الصفراني: ٢٢)** .

إن غياب صوت الأديب وجسده يفقد المتلقي جزءًا مهما من النصوص, وهذا الجزء تمثله سمات الأداء الشفهي, فالصوت يمثل حياة وحضور و وجود, وقد تمثل الكتابة موت وعدم وغياب؛ لذا كان لا بدَّ من نقل تلك السمات إلى المتلقي حتى لو كان النص مكتوبا, وهذا ما يجسده التشكيل البصري الذي يعبر عن الجدل بين الأذن والعين, بين حاسة الاتصال اللغوي, وحاسة الاتصال الصوري, فالعين تحدد الأبعاد فهي حاسة المكان, فيما الأذن حاسة الزمان, لأنها تعتمد الثقافة الشفوية لا ثقافة الكتابة والصورة **(ينظر: المصدر نفسه :١٤)**، لذا حاول بعض الأدباء والشعراء تجسيد ما غيبته الكتابة من سمات شفهية وحركية في النص المكتوب, مما يجعل مادة الكتاب جديرة بالبحث والاستقصاء فهي تتخطى أطر المكان وحدود الزمان, وسنقف عند كتاب (كليلة ودمنة) لاستكشاف مغاليقه الإبداعية والوقوف على تشكيلات صوره البصرية، التي قد لا نعثر فيها على تقنيات التشكيل البصري المعروفة كالبياض والسواد، وعلامات الترقيم وتقطيع الكلمات ومدها أو حذفها، وهو ما أشرنا إليه آنفا، لكننا سنحاول قراءة النصوص من خلال رموزها التي تحيل إلى دلالات يمكن تلمسها بالبصيرة أولا وبالبصر ثانيا .

التعريف بالكتاب :

(كليلة ودمنة) كتاب قصصي, قصصه أخلاقية موزعة على أبواب عدة, في كل باب قصة, وقد تتداخل القصص في الباب الواحد؛ فقد يتنقل الكاتب من القصة الأساس أو (القصة الإطار) إلى قصص فرعية تدعم القصة الأساس التي تحوي عظة وحكمة, وهو يسير على طريقة المحاورة من خلال طرح الأسئلة والإجابة عليها وذكر ابن المقفع في مقدمة الكتاب سبب تأليفه, من أن هناك ملكا ظالما اسمه (دبشليم) جار على رعيته, وهو متعطش لمعرفة الحكمة وسياسة البشر فهو رمز لكل ملك في كل زمان ومكان, فحاول أحد الفلاسفة هو وتلامذته نصحه ولكنهم خافوا من طغيانه, فاختار التلامذة الفيلسوف (بيدبا) رجل الحكمة والإطلاع الواسع, رجل الحقيقة التي يريد نشرها في لين وسياسة, ليغلف نهجه بمجموعة حكايات يسردها للملك, فيعجب به الملك ويطلب منه أن يجمع تلك القصص في كتاب, فكان له ما أراد .

تجري القصص ـ في هذا الكتاب ـ على ألسنة الحيوانات بأسلوب ظريف, فيه فكاهة ومتعة, تتخللها معانٍ فلسفية وإنسانية وأخلاقية .

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد التاسع
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

تبدأ كل قصة بحكمة يسأل عنها الملك (دبشليم) حتى يسرد الفيلسوف القصة التي تحقق الغاية والقصد الأخلاقي, وتتضح تلك الدعوة إلى الإصلاح حتى في المقدمة, إذ دعا إلى المشاركة في الرأي الذي من شأنه أن يحقق الإصلاح، فتلامذة الفيلسوف يمثلون مختلف طبقات الشعب .

فالكتاب يمثل دعوة إصلاحية, وهو نقد لاذع لسياسة ذلك العصر, فضلا عن قيمة الكتاب الفنية والأدبية والتاريخية, وهو ما يتجلى فيما نبه إليه ابن المقفع من ضرورة توخي الحذر واستحكام العقل في تلقي ما جاء في متن الكتاب فقال : "فأول ما ينبغي لمن طلب هذا الكتاب أن يبتديء فيه بجودة قراءته والتثبت فيه, ولا تكون غايته منه بلوغ آخره قبل الإحكام له ...، فعليه بالفهم لما يقرأ والمعرفة حتى يضع كل شيء موضعه وينسبه إلى معناه ..." **(ابن المقفع,٢٠١٢: ٤٦)**.

ويمثل الكتاب إدانة للقمع والظلم, وهو رسالة تهذيبية هادفة للفرد سواء أكان حاكما أم محكوما, فظاهر الكتاب ينبيء عن أنه يمثل سياسة العامة وتهذيبها, أما باطنه فيشير إلى أخلاق الملوك وسياساتهم, وقد نجح ابن المقفع في تعميم الحكمة بين الناس عن طريق القص, فكان "ظاهره لهوا للخواص والعوام, وباطنه رياضة لعقول الخاصة" **(ابن المقفع, ٢٠١٢: ٣٩)**.

وعند تأملنا في العتبة النصية الأولى وهي العنوان، نجد أنه يمثل شخصيتين سرديتين رئيستين، هما (كليلة ودِمنة) وهما بالحقيقة يمثلان عنصرا (الخير والشر) وقد قدَّم الخير بتقديمه اسم كليلة على الشر الذي مثله دمنة، فمثل (كليلة) جانب الخير , في حين كان (دمنة) مثالا للشر في قصص الكتاب , ويمكننا القول إن كل النصوص الفرعية المندرجة ضمن القصة الأساس قائمة على ثنائية الخير والشر المستقاة من فلسفة ابن المقفع (**ينظر: حكيمة,د.ت:٤٠**) .

لقد اختار ابن المقفع هاتين الشخصيتين لكونهما شخصيتين أساسيتين في باب(الأسد والثور) الذي أحتل المكان الأكبر في الفضاء النصي للكتاب ,إذ يمثل هذا الباب (السلطة العليا , ويصور الحياة في البلاط وما يضطرب فيها من مكائد ....ثم يصور الملوك في سياستهم الداخلية وما يعتورها من نقص في اختيار الأعوان وفي توزيع الأعمال وتصديق الأقوال ,وما إلى ذلك مما يقود المُلك إلى الانهيار والبلاد إلى الهلاك والدمار؛ وهو يعالج كل داء بأقوال الحكماء كما يعالج بالتمثيل وتقديم الحجج والشواهد) **(الفاخوري,د.ت: ٥٣٨)**

وفي الكتاب أربعة أهداف **(ينظر: الصفدي, ٢٠١١ :٧٢)**:

١ـ الهدف التربوي تحققه الحكمة فهو موجه لأهل الهزل، والحكمة فيه تصلهم بطريق غير مباشر, عنه يقول ابن المقفع : (فمن قرأ هذا الكتاب فليقتدِ بما في هذا الباب, فإنني أرجو أن يزيده بصرا ومعرفة,

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science ISSN 2306-5249
العدد التاسع
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

فإذا عرفه اكتفى واستغنى عن غيره, وإن لم يعرفه لم ينتفع به, فيكون مثله كمثل الذي رمى بحجر في ظلمة الليل فلا يدري أين وقع الحجر ولا ماذا صنع) **(ابن المقفع, ٢٠١٢: ٥١)** .

٢ـ الهدف السياسي فهو موجه للملوك لتأمل أحوال الشخصيات .

٣ـ الهدف الجمالي الأدبي فهو موجه إلى العامة ليشيع وينتشر .

٤ـ الهدف العقلي : التأكيد على أهمية العقل والعاقل وهذا مثله الفيلسوف (بيبدبا) .

أوضح ابن المقفع الطريق الأمثل لتحصيل الفائدة من الكتاب وذلك بقوله : (يجب على قارئ هذا الكتاب أن يديم النظر من غير ضجر, ويلتمس جواهر معانيه, ولا يظن نتيجته إنما هي الإخبار عن حيلةِ بهيمتين أو محاورة سبع بثور فينصرف بذلك عن الغرض المقصود) **(ابن المقفع,٢٠١٢ :٤٠)**.

لقد أحدث ابن المقفع تطورا كبيرا في استعمال (المثل) بعد أن كان قصة مضمرة ترتبط بحادثة معروفة لدى السامع في الرواية الشفوية, فأحالها إلى منظومة أخلاقية فكرية وظفها لبناء مشروع فكري واجتماعي وسياسي, اعتمد فيه على التخفي وراء شخصياته الحيوانية لبناء منظومة متكاملة من القيم والمبادئ, فحلق بجناحي (اللهو والحكمة) محققا المتعة والفائدة, إذ حملت شخوصه أفكار القص ومراميه وأهدافه **(ينظر: الصفدي,٢٠١١ :٧٤)** ، وقد يسأل سائل بمَ يختلف هذا الكتاب عن كتب الأمثال التي حفل بها الأدب العربي ؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول : إنه قد يتشابه نمط ذكر المثل وقصته في كليهما ولكنهما اختلفا في البناء القصصي, فكتب الأمثال تقدم مادتها بوصفها أخبارًا تحتاج إلى توثيق، وهي تتضمن تجاربا وحكما متفرقة لا رابط بينها, أما كتاب (ابن المقفع) فيقدم الأمثال بوصفها مادةً قصصية تخيلية يجمعها هدف واضح وهو الإصلاح السياسي والاجتماعي والنفسي, فكان مجددا في أسلوب توظيف المثل في إطار قصصي حقق غايات بعيدة المدى, فأصّل بذلك للفن القصصي الرسمي لأنه كُتب بلغةٍ أدبية راقية **(ينظر: الصفدي, ٢٠١١ :٧٤)**.

أسلوب ابن المقفع في السرد القصصي

تبدأ كل قصة كما أسلفنا بأن يقول الملك دبشليم للفيلسوف بيدبا : اضرب لي مثلا في كذا وكذا ... فيوطيء بيدبا لطلب الملك بفكرة تتصل به وهي قصة لها أبطالها وحوادثها, وتتفرع عنها قصصا أخرى ترويها إحدى الشخصيات حتى ينتهي الباب بحكمة أو رأي يلخص القصة **(ينظر: الجندي,١٩٦٧: ٥٧)**.

وسنحاول الوصول إلى مضمون بعض النصوص التي اخترناها عبر تنظيم بعض الصور المشّكلة داخله بوصفها عنصرا دلاليا محددا ومدركا أثناء القراءة, ففي قصة (البطتان والسلحفاة) **(ابن المقفع,**

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد التاسع
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

٢٠١٢ : ٩٧), المكان هو (عين ماء) فهو مسرح الأحداث ثم عرض الحبكة أي تصاعد الأحداث (طيران البطتين وهما تحملان السلحفاة) ثم نهاية القصة وهي (موت السلحفاة), القصة عبارة عن مثال هدفه نصحي إرشادي, حوارها بسيط يدور على ألسنة الحيوانات, وأحداثها متتابعة, ربطها الكاتب بقصة سبقتها فلو تخيلنا الأحداث لوجدنا ما يأتي :

الزعم بأن عينا من الماء كان فيها بطتان وصاحبتهما السلحفاة, إذ تجف العين وتهمُّ البطتان بالرحيل, فتطلب إليهما السلحفاة مساعدتها لترحل معهما فتقرران حملها بعود شرط أن تُطبق عليه (فاها) ولا تكلم أحدا, حتى يوصلاها بأمان ... ولكنها لم تلتزم بالنصيحة ليدركها الموت, لنصل إلى حكمة أو نصيحة مفادها أن (من لا يستمع للقول النافع من أصدقائه يصاب بالأذى) .

وفي ملخص ما أوردنا تكاد تكون الصور مرسومة أمام أعيننا وإن كانت تقرب من الصور الخيالية, وقد انمازت لغة القصة بسلاستها وسلامتها, وكأن تلك الحيوانات تُحسن التعبير عن كينونتها وأفكارها وهمومها بلغة السهل الممتنع . فالحوار والجدل سمتان ميزتا أسلوب الكاتب, والراوي في القصة هو الفيلسوف (بيدبا)، وهو راوٍ عليم يمتلك قدرة تفوق الشخصيات, دأب الكاتب على خلق وتصوير الشخصيات بتشكيل بصري قادر على النفاذ إلى عقل المتلقي, وتتجلى قدرة الشاعر أو الأديب على التقديم الحسي للمعنى في قول عبد القاهر الجرجاني إذ يعبر عن ذلك بقوله : "إنك ترى بها الجماد حيا ناطقا والأعجم فصيحا, والأجسام الخرس مبينة والمعاني الخفية بادية جلية, إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقول كأنها جُسّمت حتى رأتها العين" **(الجرجاني,١٩٨٨, ٣٣)** .

وفي قصة (الأسد والثور), يطلب الملك (دبشليم) من (بيدبا) أن يضرب له مثلا برجلين متحابين يقطع بينهما الكذوب الخؤون ويحملهما على العداوة والشنآن **(ينظر:ابن المقفع, ٢٠١٢: ٧٣)**, يمثل في القصة أحد أبناء آوى وهو(دمنة)جانب الشر وهو شخص كاذب ذو مكر ودهاء, فيما كان الآخر يمثل جانب الخير وهو (كليلة) وقد حاول نصحه وثنيه عن عزمه في التفريق بين الأسد والثور, ضاربا له مثلا بقصة فرعية تشظت من سياق القصة الأساس وهي قصة (القرد والنجار)، لكن دمنة لم يستمع إليه, حتى تتداخل الأحداث فيصبح دمنة من أعوان الملك, فيقرب (الثور) من الملك (الأسد)، فلما رأى مكانة الثور عند الأسد حسده وقرر بث الفرقة بينهما, بأن تكون نهاية الثور على يد الأسد, وتتصاعد الأحداث ليكتشف الأسد خديعة دمنة الذي يحرض الملك الأسد على الثور بقوله : "إن اللئيم لا يزال نافعا ناصحا حتى يُرفع إلى المنزلة التي ليس لها بأهلٍ" **(ابن المقفع:١٦٠)** مما يثير حفيظة الأسد فيفتك بالثور البرئ, وتنتهي القصة بحكمة مفادها : أن " لا تلتمس تقويم ما لا يعتدل ولا تبصِّر من لا يفهم" **(ابن**

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد التاسع
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

المقفع: ١٠١)، وإن "من يلتمس منفعة نفسه بهلاك غيره, ظالما له بخديعة أو مكر أو خِلابة, فإنه غير ناجٍ من وبال ذلك عليه وعاقبته ومغبَّته" **(المصدر نفسه: ١٢٢)**.

يحصل هنا لدى قراءة النص تداعيا بصريا من خلال فهم مكونات الحكاية مما ينتج دلالة جديدة تُظهر القيم الجمالية والملامح التعبيرية في النص ,لنصبح جزءاً من اللغة الفنية باكتشاف إسرار النص عن طريق وعينا التفاعلي , وهذا لا يتحقق إلا باعتماد البصيرة التي لطالما ارتبطت بالعقل للوصول إلى لغة الفضاء البصري في النص .

إن هذا المزج البارع بين صفات الإنسان التي أعارها الكاتب للحيوان بدت أكثر تأثيرا في النفس, إذ أسند إليه جملة من صفات الإنسان بما يناسب المعنى الذي يعالجه, حتى ليخيل للقارئ أن الصورة ماثلة أمامه فيتفاعل مع الأحداث منتجا قراءات جديدة من شأنها أن تثري النص الأدبي .

إن لبعض الحيوانات صورة نمطية قارة وثابتة في عرف المجتمع بحيث باتت تمثل رمزا ثقافيا بحد ذاته , وهذا ما اكتسبته تلك المخلوقات بالتعاقب عبر المخيال الحكائي الشعبي , أو حتى عبر الأثر الفني , ومنها رمزية الكلب للوفاء والبوم والغربان للشؤم والحية للمكر والشر والحمامة للسلام والأمن والثعلب للمكر والخديعة .**(ينظر: سالم: ٣١)** .

انمازت أغلب قصص ابن المقفع بالكثافة والاختزال, واستعمال الرمز لتكثيف الدلالات وتجسيد المعاني, عامدا في ذلك إلى تشخيص الموجودات، فبدت شخوصه حية ناطقة أسبغ عليها نعوتا إنسانية, ليبث فيها الحركة والحياة فتبدو الصور ماثلة للعيان, وقد يدل هذا على فقدان حرية التعبير في الواقع الملموس, فقد تفشى الفقر وشاع الظلم والجور في الرعية في تلك المرحلة, مما حدا بابن المقفع التخفي وراء هذا الرداء ليرسّخ قيم معينة دون مواجهة الحاكم, مؤطرا كل ذلك بصور متخيلة , مستعينا بالجزئيات التي نبصرها ليكوّن صورة لا واقع لها تدركها البصيرة لا البصر, شكلّها خياله الفذ فبدت شخوصه صورا حية أثارت خيال المتلقي بما يتداعى في فكره من أخيلة وتصورات لم تعدم العبرة والفائدة .

في قصة (الحمامة والثعلب ومالك الحزين) تجسد الحمامة رمز الضعف والبساطة والغباء فهي لم تحتكم للعقل, ولكنها قررت التغيير فيما بعد، حين نصحها مالك الحزين, الذي كان ناصحا من جهة ومغفلا من جهة أخرى, فيما جسد الثعلب رمز المكر والخديعة والأنانية، وهو رمز الشخص المتسلط القادر على إرهاب الآخرين, المعرّض أمنهم للخطر, كل تلك الصفات جسدها الثعلب في القصة .

تبدأ القصة بطلب من الملك دبشليم حين يقول للفيلسوف بيدبا : "اضرب لي مثلا في شأن الرجل الذي يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه" **(المصدر نفسه: ٢٤٤)**، فيروي له الفيلسوف حكاية الحمامة التي كانت تضع بيضها أعلى النخلة, ويأتي الثعلب ليتوعدها بتسلق النخلة أو أن ترمي إليه أحد صغارها

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد التاسع
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

فتخاف منه وترمي إليه في كل مرة أحد أفراخها, وحين وجدها مالك الحزين على هذه الحال نصحها بأن لا تستمع إلى الثعلب لأنه لا يستطيع التسلق إليها, ففعلت الحمامة ما طلب منها مالك الحزين, لكنها أخبرت الثعلب بمن نصحها, فكاد الثعلب بمالك الحزين وقضى عليه بالحيلة .

اعتمد الكاتب على الأسلوب الخبري باستعمال صيغة الفعل الماضي لأنه يناسب السرد, معولا في ذلك على أسلوب الحوار الذي من شأنه إثارة المتلقي وإدهاشه وتحقيق حبكة القصة, أما زمان القصة فهو مبهم؛ لأن المهم عنده استيحاء العبرة من القصة دون التركيز على زمان الأحداث, كما أنه أعار لشخوصه الحيوانية بعض الصفات الإنسانية كالصياح مثلا , لترتسم أمامنا صورة (الضعفاء الجبناء) من بني البشر فهم ضحايا الحيلة والمكر,تعكس حيثيات المشهد عن الصراع القديم المتكرر بين ظالم مستبد ومظلوم مضطهد, بينهما طرف ثالث يرتدي ثوب المنقذ المخلّص المدافع عن حقوق الضعفاء,وتبرز داخل فصول الحكاية مجموعة مترابطة من الرموز ,قد تبدو إحدى بهائم الطبيعة التي لا يحكمها نظام , وكأنها ترمز إلى غياب النظام والقانون من المجتمع.

يُبنى النسيج الدرامي على ثلاث شخصيات (الحمامة المضطهدة المقهورة والثعلب المحتال المتغطرس ومالك الحزين المنقذ الساذج في آن واحد) فتظهر لنا ثلاث مشاهد هي:

1- مشهد (الثعلب والحمامة) يجسد فكرة الظلم والتعسف.

2- مشهد(الحمامة ومالك الحزين) يجسد فكرة الشفقة.

3- مشهد (الثعلب ومالك الحزين) يجسد فكرة الانتقام.

تكشف الحكاية عن مغزى عام , يتلخص في فكرة الاستبداد من جهة وفكرة الانتقام من جهة أخرى وتتوسط بينهما فكرة الاحتيال بوجهيه المحمود والمذموم , وهذه كلها موجهة نحو فئة ضعيفة في المجتمع لاتملك حيلة للدفاع عن نفسها غير أنه قد تلوح لهم بوادر الخلاص في وقت ما.**(ينظر:سالم: ٣٣)** ونخرج بعد كل هذه الأحداث بحكمة مفادها : أنك أن كنت ناصحا, فابدأ بنفسك قبل غيرك .

إن "حكايات كليلة ودمنة ذات مغزى سياسي، لذلك فإن كل ما يتعلق بها يحيل على الملك وما يحيط به، لأن بيدبا الفيلسوف عبر بالحيوان عن الإنسان" **(فزاري, د.ت:٢٨٠,)** لذا كانت معظم الشخصيات تمثل دوالا في الحكاية، فالحمامة في قصة (الحمامة والثعلب ومالك الحزين) تحيل إلى مدلول الإنسان الضعيف المستسلم، والثعلب يحمل دلالة المكر والخديعة، فيما عبرت النخلة عن العلو والرفعة، أما شخصية مالك الحزين فقد أحالتنا إلى شخصية الإنسان الساذج الذي يسهل خداعه .

لقد أخرج ابن المقفع المعاني المعقولة والأفكار الخفية بصور مرئية خليقة بالإقناع والتأثير فمنها قوله : "العلم والحياء إلفين متآلفين لا يفترقان, من فقد أحدهما لم يوجد آخر, كالمتصافيين إن عدم منهما

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد التاسع
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

أحد لم يطُب صاحبه نفسا بالبقاء بعده تأسفاً عليه" **(المصدر نفسه: ٢٠, د.ت)** ، فالعلم والحياء أمران عقليان متلازمان مثل لهما بأمر محسوس وهو المتصافيان, وقال :" كما أن الرجل لا يُبصر إلا بعينيه ولا يسمع إلا بأذنيه, كذلك العلم إنما تمامه الحلم، والعقل والتثبت, غير أن القضاء والقدر يغلبان كل شيء وإنما يريدان أدنى علة" **(ابن المقفع: ٢٠٩)**.

كما أنه وظف المثل في قصصه فكان له قدرة عالية على التواصل مع المتلقي فقد "تزدوج أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع فتكون أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطَب وتوجيه سلوكه لما يهبه هذا الإمتاع من قوة استحضار الأشياء ونفوذ في إشهادها للمخاطب كأنه يراها رأي العين" **(قطاف, ٢٠١٢م: ١٨٥)**، كما أنه يسهم في إثارة خيال المتلقي ليستحضر القصة المفترضة للمثل .

وأخيرا نقول : إن كتاب كليلة ودمنة كان له أبعد الأثر في تطور القصة المروية على ألسنة الحيوانات لا في عصر ابن المقفع فحسب بل فيما تلاه من عصور, حتى أن كثيرا من شعراء القرنين السادس والسابع الهجريين نظموه شعرا, كما فعل من قبلهم أبان اللاحقي حين نقله شعرا ليسهل تداوله بين الناس, ومن ذلك قوله:

هذا كتابُ أدبٍ ومحنةٌ وهو الذي يُدعى كليلة دمنةْ
فيه دلالات وفيه رشدُ وهو كتابٌ وضعته الهندُ

(اللاحقي,تح: فوشة :٩٥) وقد لخص ابن المقفع على لسان الفيلسوف رغبته في تدبر الكتاب بفطنة ودراية فقال حين انتهى من سرد الحكايات على الملك : "اجتهدتُ لك في رأيي ونظرتُ بمبلغ فطنتي في التماس قضاء حاجتك, فأقضِ حقي بحسن النية منك بإعمال فكرك وعقلك فيما وصفتُ لك .... فمن تدبَّر هذا الكتاب بعقله وعمل فيه بأصالة رأيه, ثم فكّر فيه, كان قِمناً للمراتب العظام والأمور الجسام" **(ابن المقفع, ٢٠١٢: ٢٢٠)** .

فالكتاب ـ كما نفهم ـ ذو قيمة فكرية لما توافر عليه من فلسفات أخلاقية واجتماعية، ولما تضمنه من دروس ومواعظ وعبر يهتدي إليها كل ذي عقل لبيب .

الخاتمة :

لعلَّ البحث في نهاية رحلته قد أضاء بعضا من مساحات تراثنا القصصي، وأبرز شيئا من خصائصه الفنية وطاقاته الفنية الابداعية ممثلا بحكايات كليلة ودمنة, إذ يمكن مما سبق أن نستخلص ما يأتي :

1- أسهم كتاب (كليلة ودمنة) في تقويم الأخلاق بالوعظ, ورياضة العقول بالحكمة .

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد التاسع
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

2- أكسب أسلوب ابن المقفع الكتاب قيمة كبيرة فقد احتضن الأفكار في قصص خيالية تشغل العقل والحواس .

3- تنوع الشخوص ورمزيتها ومحاكاتها لواقع الإنسان, أدى وظيفة إيجابية حملت قيما فكرية وأخلاقية .

4- يُحيل التشكيل النص إلى إدراك بصري لا يتحقق ولا يُدرك إلا بالحواس .

5- أحدث ابن المقفع تطورا في أسلوب توظيف المثال أو الشاهد في القصة المروية, ولو نقل كتاب (كليلة ودمنة) من أفق النظرية إلى ميدان الواقع لحقق رسالته الفكرية والحضارية .

المصادر والمراجع :

1- أسرار البلاغة في علم البيان, عبد القاهر الجرجاني صححه وعلق حواشيه : محمد رشيد رضا, دار الكتب العلمية، ط١, بيروت, ١٩٨٨ م.

2- تاج العروس من جواهر القاموس,السيد محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي,

3-التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث, محمد الصفراني, النادي الأدبي, الرياض والمركز الثقافي العربي، ط١, الدار البيضاء، ٢٠٠٨ م.

4-التشكيل الشعري, الصنعة والرؤيا,أ.د محمد صابر عبيد ,دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع,سورية, دمشق,٢٠١١م.

5-الجامع في تاريخ الأدب العربي, حنا الفاخوري, الأدب القديم, منشورات ذوي القربى, مطبعة سليمان زادة, ط٣, (د.ت) .

6-دراسات في الأدب العربي القديم, إنعام الجندي, دار الأندلس للطباعة والنشر، ط٢, بيروت, ١٩٦٧ .

7-شعر أبان بن عبد الحميد اللاحقي جمع وتحقيق ودراسة عصمه عبد الله فوشه,دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع ,١٩٦٧م.

8-الفروق اللغوية,للإمام الأديب اللغوي أبي هلال العسكري ,حققه وعلق عليه:محمد إبراهيم سليم, دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع ,مصر, القاهرة,١٩٩٧م.

9-الفن القصصي في النثر العربي حتى مطلع القرن الخامس الهجري, د. ركان الصفدي, مكتبة لسان العرب, ط١, ٢٠١١ م.

10- العصر العباسي الأول, شوقي ضيف , دار المعارف, مصر, (د.ت) .

11- لسان العرب, ابو الفضل جمال الدين بن منظور, تح : عامر أحمد حيدر, دار الكتب العلمية، ط١, بيروت, ٢٠٠٥ م.

12- كليلة ودمنة, عبدالله بن المقفع, تح : عبد الوهاب عزام وطه حسين, مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة, مصر,٢٠١٢.

١. كليلة ودمنة, عبد الله بن المقفع, مراجعة وتعليق : عرفان مطرجي, دار الفكر، ط١, بيروت, ٢٠٠٥.

الاطاريح والرسائل الجامعية:

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد التاسع
٢٠٢٢م/١٤٤٤هـ

1-الخطاب السردي في كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع, مقاربة تداولية, سارة قطاف, رسالة ماجستير , جامعة الحاج لخضر , باتنة, كلية الآداب واللغات, ٢٠١٣ .

2-السياق التداولي في كليلة ودمنة لابن المقفع، حبي حكيمة، رسالة ماجستير ، جامعة مولود معمري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجمهورية الجزائرية، د.ت .

البحوث والمقالات المنشورة :

1- آليات التشكيل البصري في النص الشعري الجزائري المعاصر , ديوان الدواوين لـ(عقاب بلخير) أنموذجا,لعموري يمينةود. ورنيقي الشايب,مجلة إشكالات في اللغة والأدب ,مج١١,ع ٢, ٢٠٢٢م.

2- البعد الرمزي في أمثال كليلة ودمنة, حكاية الحمامة والثعلب ومالك الحزين أنموذجا,د. جلطي بن زيان سالم , مجلة دراسات لسانية, مج ٤, ع ٤, ٢٠٢٠م.

3- التشخيص في حكايات كليلة ودمنة, العطرة الوشعي, مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية, مج ٣,ع ٤, ٢٠٢٠ م.

4- حكاية الحمامة المطوقة، دراسة سيميائية، د. أمينة فزاري ،مجلة الآداب واللغات والعلوم الإنسانية، ع٢، (د.ت) .

مجلة العلوم الاساسية
للعلوم التربوية والنفسية وطرائق التدريس للعلوم الاساسية